وكانت الشمسُ فى الشتاء كأنها صورةٌ معلقة فى السحاب
وكان النهارُ كأنه يضيءُ بالقمر لا بالشمس
وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غير سائل
وكانت الحياة تضع فى أشياءَ كثيرة معنى عبوس الجوّ
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر

* * *

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة
ويشعر أنه فى معانى الذات أكثر مما هو فى معانى العالم
وتمتلئ له الدنيا بالأزهار ، ومعانى الأزهار ، ووحى الأزهار
وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر
ولا تنسى الحياةُ عجائزها ، فربيعُهم ضوءُ الشمس . . .

* * *

ما أعجب سر الحياة ! كل شجرة فى الربيع جمل هندسى مستقل
ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياةُ فى جمال هندسى جديد كأنك أصلحتها
ولو لم يبق منها إلا جذر حيّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلا من غصون وأوراق
الحياة الحياة . إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها
وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن

* * *

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها »
وانظر كيف يخلق فى الطبيعة هذه المعانى التى تبهج كل حى، بالطريقة التى يفهمها كل حى
وانظر كيف يجعل فى الأرض معنى السرور ، وفى الجو معنى السعادة
وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملأها وتطمئن ؟
انظر انظر ! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة : لا

طنطا

الاسلام كعامل فى المدنية

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ أحمد أمين

والمسألة الثانية هى « الثقافة الاسلامية » وأثرها فى المدنية
وأريد أن أكرر هنا ما أشرت اليه من أن الثقافة الاسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الاسلامية التى ألمتْ بها . فالقرآن رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام ، وعبادة أصنام ، وبما حث على النظر فى الكون ومراقبة تغيراته ، واختلاف مظاهره ، ودوام حركاته ، وبتوجيه العقل الى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة ، فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون الى أصل واحد هو آدم وحواء ، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع الى ما أنزل من السماء من ماء ، والعالم كله يرجع الى وحدة الخالق « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . فهذه الوحدة فى العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفى الروحى . فالقرآن من ناحية فك قيود العقل ، وهذا هو العامل السلبى ؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال ، وهذا هو العامل الايجابى

من أجل هذا كانت الثقافة الاسلامية نتيجة العقيدة الاسلامية لا نتيجة شىء آخر ، فان هى اتجهت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أى كائن كان

وقد بذر الاسلام فى نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفاً ، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا . فاذا نظرنا الى ما كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب ، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شىء أخذوه بروح من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها — حتى هذا المنطق اليونانى الذى دانت له كل الأمم زاد الغزالى فى بعض كتبه فصولاً عن القرآن ؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة . وكان

شأنهم فى كل فرع هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين فى ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح فى الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحى تأثير الثقافة الاسلامية فى الثقافة الأوروبية ؛ وكان من آخر ما أظهروا فى هذا الباب كتاب ما خلفه الاسلام Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية فى الجغرافيا والتجارة ، وفى القانون والاجتماع والفن والعمارة وفى الأدب ، وفى التصوف وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب ، وفى الهيئة والرياضيات . وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما كتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ، وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولعلنا لكى نقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال : هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التى يقف عليها الآن لولم تكن مدنية الاسلام ؟ هل لولم يكن فى الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه لولم ترتكز على المدنية الاسلامية ؟

هذا سؤال واحد فى أوضاع مختلفة والاجابة عنه يسيرة ، وهى إجابة بالنفى القاطع . ولا يعلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لولم ترتكز على المدنية الاسلامية وتطير من على عاتقها ، فالمتتبع لتاريخ المدنيات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنية الاسلامية هى التى فى الذروة قبيل المدنية الحديثة ، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى فى العالم فى مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما ، ونظمهما الادارية والحربية . ولتوضيح ذلك ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الاسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة — كانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس . فاذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، وإذا كان الحس يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خداعاً ، والحقيقة ما قال أرسطو . لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى فى وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معاً ، ومع هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو ، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك فى هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ولا تؤمن بشىء حتى تدل التجارب على صحته ، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم ؛ فالتاريخ يحدثنا أن النظام ألف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتابه الحيوان يطلع اطلاعاً واسعاً على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هذا التقديس ؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد جربنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً . ويقول : « إن قوله هذا غريب » ، و « هو قول لا يجيزه العقل » إلى كثير من أمثال ذلك ، وربما فضل على قوله قولاً آخر قاله عربى جاهلى فى بيت من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكماً على أرسطو ، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا جعلوا أرسطو حكما على العقل ، والبيرونى يحكم عقله فى الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، ويفضل هذه حيناً وهذه حيناً فى كتابه الآثار الباقية ، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف ، ويقف الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » الموقف الذى وقفه بعدُ ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وأنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال : « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ،

فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني » ، وابن خلدون تنظر إلى المجتمع الانساني هذا النظر الحر الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر في مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهي القبائل العربية والدول الاسلامية ، واستنتج من ذلك كله نظرياته التي كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين وإعجابهم

وعلى الجملة فهذه الأسس التي بنيت عليها النهضة الحديثة في أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثاً في الثقافة الاسلامية في عصورها الزاهية . وكل ما في الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون ، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت في سبيلهم عقبات ليس منشؤها دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوّم بناء لا تكون سطحيين فنقوم ظاهره ، ولا نقوم باطنه ؛ ونقوم أعلاه ، ولا نقوم أساسه

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ؛ فقد كانت لهم مناح في الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلاّ اعتماداً ضعيفاً غير مباشر ؛ فما أنشأوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة وأدبهم الذي رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليوناني ، ولا على المنهج الفارسي ؛ والعلوم الغزيرة التي أنشأوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث ، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من « أصول الفقه » الذي لم يجروا فيه على منوال سبق — كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلي للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل في بناء المدنية الاسلامية التي بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التي ربطت بين المدنية الاسلامية والمدنية الأوروبية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التي كانت تتسرّب من المدن الاسلامية تصب في المدن الأوروبية ، وإن كان بعضها لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بعد

فقد اتصل الأوربيون بالمسلمين في الأندلس اتصالاً وثيقاً ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى ، حتى أن كثيرا مما بقي من مؤلفات ابن رشد حفظت الى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذي كان مطراناً لطليطلة من سنة ١٠٣٠ — سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح ، كما نقلوا أهم كتب الفارابي وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ في باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية . وقد مرت حركة استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية في ثلاثة أدوار ، الدور الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية الى اللاتينية ، والدور الثاني : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية . والثالث : نقل الشروح العربية الى اللاتينية

وجاء فردريك الثاني سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً في صقلية وفي الشام في حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية في مصادرها الأصلية . وأنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً في نابلي لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اللاتينية والعبرية لنشرها في أوربا . وبفضل فردريك ذهب « ميكائيل سكوت » الى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت الى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت في باريس حوالي سنة ١٢٠٠ م

وفي القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت الى اللاتينية ما عدا كتباً قليلة ، منها كتاب تهافت التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للغزالي ، فقد ترجمت في القرن الرابع عشر

وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشد في جامعة بولونيا وجامعة

يا Padua فى ايطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى ايطاليا مالية الشرقية الى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب ، سينا فى الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية انوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، روجر بيكون الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه خذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومسايرٌ لكتاب بن الهيثم فى هذا الموضوع نفسه

وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين فى الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس فى جد فلسفة الكافرين ، يعنون المسلمين

وعلى كل حال فجملة الأمر فى مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لكى Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة الى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم الاسلامية ، والأفكار اليونانيـــة ، والاستقلال الصناعى ، سلطان الكنيسة »

* * *

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولا بد أن نلقى نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له حقاً أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم فى بناء صرح المدنية اشتراكا كبيرا ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم فى الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والادارات ، وفى كتبهم التى تؤلف فى العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما اليهما ، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ؛ كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب الى الكمال ؛ وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الاسلامية ، ومن مثل قضائهم فى المحاكم الشرعية ، ومن مثل مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى . فهم — فى ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة فى بناء المدنية الحديثة ، ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب فى ذلك ذنب الاسلام والمسلمين ؟ اذا عرضت نفسك لتبنى فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من مَنع لا من مُنع ، وهكذا الشأن فى موقف المسلمين . لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم فى قوة تسلحهم الى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ، فوجهوا هذه القوى الهائلة الى الشرق ، ولم يكن قد صحا بعدُ من سباته الذى سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ، وما فسد من شؤونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب كل قوته ، فاتيه مذعورا ؛ ونظر اليه الغرب نظرة استغلال ، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه عن عمل كل شىء يفيد الاستقلال ، فهو اذا أراد أن يتثقف كما يشاء ، أو يرقى شؤونه الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرقى أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته فى هذا الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرمة عليه . فهل بعد ذلك هو الذى يتحمل تبعة عدم اشتراكه فى البناء

إنى لأرجو أن الزمن ورقى الأفكار السياسية التى تخطو فى هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربى ينظر الى الشرق نظرة تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية ، وأن رقى الشرق والسماح له بالبناء يزيد فى صرح المدنية ويرفع بناءها ، ويسرع فى علو شأنها . وكما تبين للناس أن نظام الأقطاع وتسخير الملك للعبيد لم يكن فى مصلحة الملاك ولا العبيد ، فحطموا هذا النظام من أساسه ، وأسسوه من جديد على تحرير العبيد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون إلى الرأى والعقل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً

على أن من العدل أن نقول إن التبعة فى ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم ، فان هناك عوامل فى المسلمين أنفسهم جعلتهم فى هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، ووقفوا موقفاً عدائياً فى تاريخ المسلمين ، وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان كلما حاول الاصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالزوق ، وإن أراد تنظيم الادارة الحكومية قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن نتتبع آباءنا وأنا على آثارهم مقتدون .